ظاهرة الترييف الحضري
المبررات والنتائج
دراسة في الايكولوجية الحضرية

أ.د. صلام حميد الجنابي
كلية التربية /جامعة الموصل

مدخل

ان إستشرافاً بسيطاً لمعطيات السكان في العالم على اساس البيئة نجد ان ميزان السكان ، ومنذ الثورة الصناعية بدأ يؤشر ارتفاعاً مضطرداً في عدد سكان الحضر . فخلال قرن من الزمن (١٨٠٠-١٩٠٠) ازداد سكان العالم (٦,٣) مرة ، بينما ازداد سكان الحضر (٧٠) مرة، وفي المدة (١٩٠٠-١٩٥٠) ازداد سكان العالم (٣.٥) مرة بينما تضاعف سكان الحضر بمقدار (٨) مرات . ونتجت المدة (١٩٥٠-٢٠٠٠) ارتفاع سكان العالم بمقدار (١,٢٥) مرة في حين تضاعف سكان الحضر ثلاث مرات ، لقد انعكس هذا التزايد السكاني على النسبة الحضرية في العالم ، فبعد ان كانت نسبة سكان الحضر في عام (١٨٠٠) لا تتعدى (٣,٤%) من مجموع السكان ، ارتفعت في عام ١٩٠٠ الى (١٣,٦) ثم الى (٣٣,١) في عام ١٩٦٠[١] ومن ثم الى (٥١,٢%) في عام ٢٠٠٠[٢]. ان هذا يعني ان المناطق الحضرية في العالم تتزايد في الوقت الراهن بمقدار (٨١) مليون نسمة سنوياً من مجموع الزيادة السكانية السنوية في العالم والبالغة (٩٧) مليون نسمة . وبعبارة اخرى يضاف الى المجتمعات الحضرية سنوياً ما يقرب من عشرة مدن عظمى.

ان هذه الظاهرة ادت الى تزايد مضطرد في اعداد المدن المليونية . فبعد ان كان عددها عام ١٩٠٠ لا يتجاوز (١٤) مدينة ، ازدادت الى (٥٠) مدينة في عام ١٩٥٠ ومن ثم الى (٣٠٠) مدينة في عام ١٩٩٦[٣]. كما ادت هذه الظاهرة

الى ظهور ما يصطلح عليه بالمدن السديمية او المدن الشيطانية Megalopolis كما سماها كوتمان[٤].

ان كل تلك المؤشرات تؤكد سيطرة التحضر على سكان الكرة الارضية ، الامر الذي اسبغ المجتمع المعاصر بخاصية الحضارة الحضرية urban civilization . وعلى الرغم من ذلك فان النسبة الحضرية تختلف بين الدول النامية والمتقدمة ، ولكن الخاصية المشتركة بينهما ان معدلات النمو الحضري اعلى من معدلاتها في المجتمعات الريفية . ولكن التباين يكون واضحاً في معدلات النمو ، فهي متواضعة في الدول المتقدمة لا تتجاوز ٠,٢% في انكلترا و ٠,٣% في بلجيكا ، ولكنها انفجارية في الدول النامية إذ تبلغ ١٠,٥% في موزمبيق و ٢٣,٧% في دول الامارات العربية[٥].

ان عملية النمو الحضري تتم بتأثير متغيران اساسين هما: النمو الطبيعي للسكان من خلال الفرق بين الولادات والوفيات ، والنمو الميكانيكي الحاصل بتأثير الهجرة من الريف الى المدن . وهناك متغير اخر حديث يتم بعملية الضم الحضري عندما تتوسع المدن تحتوي في حيزها الحضري مستوطنات ريفية مجاورة يطلق عليه (النمو بالاسر الحضري)

الترييف الحضري :

جرت محاولات عديدة من الباحثين والمؤسسات والدول للتميز بين المجتمعين الحضري والريفي مستخدمين أسساً ومعايير متنوعة ، وذلك لانهم جميعاً واثقين بوجود فوارق تميز كل مجتمع عن الاخر . فالفلاسفة والديموغرافيين والاجتماعيين وجغرافيّ المدة والمخططين استخدموا جملة معايير للفصل بين المجتمعين الريفي والحضري ، وافرزت دراساتهم جملة اجتهادات عدّوها اسساً يمكن الركون اليها في عمليات الفصل [٦]. وعلى الرغم من وجود الكثير من الايجابيات في هذه الدراسات الا انها تعاني من بعض النواقص ، الامر الذي حدى بالباحثين لاستخدام اكثر من معيار في عمليات

الفصل ، لا بل مال بعضهم الى اعطاء قيم رقيمة لكل متغير في ضوئها يمكن تميز المجتمع الحضري عن الريفي على وفق قيمة رقمية حدية تفضل بين المجتمعين [٧]. وعلى الرغم من استخدام اسلوب الاوزان النسبية في عملية التميز يبقى للاجتهاد الشخصي دورٌ في اتخاذ القرار.

ان جميع الباحثين السالفي الذكر لديهم قناعة مسبقة بان المجتمع الحضري لا يخلو من سكان الريف لانهم المعين في اداء بعض الخدمات الوظيفية التي لا يقوم بها سكان المدينة لاعتبارات خاصة . ويبقى هذا الكم المحدود من المهاجرين أقلية سرعان ما تندمج مع سكان المدينة الاصليين ويحولون تدريجياً الى سكان حضر. ولذلك شكل السكان المهاجرون احد ركائز دراسة النمو السكاني للمدن الى متغير النمو الطبيعي . للسكان ، ومما يؤكد ذلك ان احد صفات المجتمع الحضري ان السكان المهاجرين تزيد نسبتهم عن ٢% من مجموع المجتمع المحلي للمدينة . وتختلف هذه النسبة بين مدينة واخرى تبعاً لحجم المدينة وقدرتها الاستقطابية وقوى التشتت والتركز في مناطق المنبع والمقصد . ونظراً لمحدودية سكان الريف داخل المدينة فان قيمهم الريفية وسلوكهم الاجتماعي لا يترك انعكاسه على المدينة بل ينصهر ويذوب داخل قيم المجتمع الحضري . وتبرز ظاهرة الترييف الحضري تدريجياً مع زيادة نسبة المهاجرين للمدينة بعد ان يصبح عامل الهجرة هو العامل الطاغي على معدلات الزيادة السكانية ، بتأثير الكوارث والجفاف وزيادة الاهمية المركزية للمدينة ، ووجود تسهيلات في حركة السكان وغيرها . عند ذلك تبدأ ظاهرة الترييف الحضري بالتجسد في المدينة وتترك ظلالها على مجتمع المدينة ،وتكون هذه الحالة حكراً على مدن الدول النامية التي تشهد عملية انفجار حضري لم يشهده العالم طوال مسيرة حياة البشرية على سطح الكوكب. وبتزايد نسبة سكان الريف في المدينة تبدأ ظاهرة الترييف الحضري بالتصاعد الى درجة السيطرة عندها تكون عبئاً ومشكلة في المدينة المعاصرة ، ومن الجدير بالذكر ان الظاهرة تكون واضحة السمات من خلال السلوك و٣الممارسة لبعض الانشطة الريفية

داخل الحيز الحضري ، في حين تكون بعض ظاهراته مستترة تبرز بشكل حاد في حالات الاحتكاك المباشر وسنرد على توضيح ذلك في مجريات البحث . وتختلف وجهات النظر حول ظاهرة الترييف الحضري ، فينظر اليها البعض باعتبارها حالة نكوص الى المجتمع التقليدي وبالتالي فانها ظاهرة سلبية في المجتمع الحضري ، في حين ينظر اليها آخرون الى انها نتيجة حتمية لتطور المجتمع الحضري وتزايد حاجته الى تيارات هجرة كبيرة لتغطية متطلبات المدن، وان الريف – في الاساس – صاحب المبادرة في قيام المدن بعد ان توافر لديه فائض انتاجي ، فانه لا بد من قيام اماكن مركزية لتجميع ذلك الفائض واعادة توزيعه [٨]. وهذا يؤكد بان المدينة هي ابنة الريف . وهناك فئة معتدلة ترى في الظاهرة تحصيل حاصل للنمو الحضري على ان لا تتعدى حدود المعقول ، وان لا تجعل من المدينة جزرات مميزة يتداخل فيها الريف بالحضر ويكون المجتمع الحضري عبارة عن موزاييك بشري شديد التنوع .

وفي كل الاحوال باتت هذه الظاهرة مشكلة لكونها غير مستقرة تتحرك ايجابياً لصالح الترييف ، ويبدأ البناء الايكولوجي للمدن بالانهيار .

مبررات الترييف الحضري :

لم يأتي الترييف الحضري من فراغ ولكن هناك جملة دوافع تقف وراءه لعل اهمها:

اولا – الهجرة من الريف الى المدينة :

تعد الهجرة احد العناصر الاساسية في النمو الحضري ، فهي والزيادة الطبيعية يمثلان قطبي النمو الحضري . عاشتها الدول المتطورة في اعقاب الثورة الصناعية بوتائر متصاعدة حتى استقرت على مستويات متدنية بعد عدة اجراءات اتخذتها تلك الدول . اما الدول النامية فانها اكتسبت هذه الحركة بتأثير تركيز مناطق النشاط الوظيفي في بؤر مركزية حضرية ، واخلت مناطق الريف من ديمومة الاستمرار بالنمو الاقتصادي بوتائر مماثلة لما هي عليه في

المناطق الحضرية ، فاندفعت تيارات الهجرة من الريف ولم تتوقف حتى الوقت الحاضر . مما اتخم المناطق الحضرية بالسكان . ولعل اهم دوافع الهجرة من الريف الى المدينة هي:

١. شحة موارد الديمومة في مناطق الظهير وبروز قوة الطرد المركزية من المناطق الريفية.

٢. ارتفاع القوة الاستقطابية للمدينة المركزية .

٣. تطور امكانية الوصول بين مناطق الطرد السكاني ومراكز الاستقطاب ، او بين المنبع والمقصد .

٤. زيادة فاعلية حركة العمل اليومية وبالذات بين المدينة واطارها الاقليمي.

٥. عدم وجود قوانين رادعة تحد من حركة السكان الكيفية بين المناطق الريفية والحضرية.

٦. تأثير القرار السياسي ، مثل منح تسهيلات لسكان الريف بامتلاك اراضي سكنية داخل الحيز المساحي للمدن .

٧. الزيادة المضطردة في بريق المدينة وزيادة الفجوة الحضارية بينها وبين الريف.

ان كل هذه المتغيرات وغيرها ذات الخصوصية المكانية في مناطق مختلفة كانت وراء دافع الهجرة من الريف الى المدينة الامر الذي زاد من نسبة سكان الريف في المدن الى اكثر من ٢٠% من مجموع سكان بعض مدن العالم النامي[٩]. وهذا يعني ان هناك طفح سكاني او مد سرطاني يجتاح المدن ويفرض قيمه وسلوكه على المجتمع المحلي لها.

ثانيا - توسع المدن وضم المستوطنات الريفية بالاسر الحضري :

لقد اشرنا فيما سبق الى الزيادة المضطردة في النسبة الحضرية في العالم، فقد قفزت هذه النسبة من ٣,٤ % في عام ١٨٠٠ الى ٥١,٢% في عام

٢٠٠٠ وعلى الرغم من ضخامة التطور في النسبة الحضرية ، لكن مدلولاتها تبدو اكثراً ايقاعاً اذا ما علمنا التغير في عدد سكان العالم خلال القرنين الماضيين. ناهيك عن التطور في متطلبات ومفردات المراكز الحضرية . ان هذا كله ترك انعكاسه على مساحات المدن بتأثير التوسع الافقي لها سواء في الدول المتقدمة او النامية ، بحيث تجاوزت مسميات المدن الكبيرة Metropolitan الى مصطلحات لم تكن معروفة قبل بضعت عقود مثل مصطلح conerbation[١٠]. ومصطلح Megalopolis الذي اطلقة كوتمان على التجمع الحضري المتصل في شمال شرق الولايات المتحدة ، كما طال التوسع المساحي للمدن مدناً في دول نامية ، ففي مصر المحدودة المساحة الزراعية تفقد سنوياً (19236) هكتاراً لصالح المناطق الحضرية [١١]. بينما تضاعفت مساحة كنشاسا عاصمة زائير (١١) مرة في ظرف ٣٥سنة . وبغداد من ١٦١كم^{٢} في عام ١٩٥٧ الى ٩٢٥كم^{٢} في عام ٢٠٠٠[١٢]. بينما تضاعف مساحة مدينة الرياض (٧٥٥) مرة بين عامي ١٩٠١-١٩٨٦ [١٣].

ان المتتبع لوجهة نظر لاش في معرض نقدة لنظرية المكان المركزي لكرستالر يرى انه اشار الى ان هناك علاقة طردية بين القرب من المدينة المركزية وكثافة المستوطنات الريفية[١٤]. اي ان اعلى الكثافة في توزيع المستوطنات الريفية تتركز عند ظاهر المدينة Umland . وعلى هذا الاعتبار فان اي توسع في حدود المدينة مع اي تصميم اساس جديد يعني دمج بعض المستوطنات الريفية داخل الحدود الادارية للمدن . ان هذه العملية هي اشبه بعملية الاسر ، ومن ثم بات بالامكان الاصطلاح على هذه العملية بعملية الاسر الحضري .

ان عملية الاسر الحضري هي عملية قسرية مبنية على مبدأ الضم الاجباري لمستوطنات ريفية داخل المركب الحضري . فالمستوطنات الريفية التي كانت في تعداد سابق تصنف ضمن سكان الريف اصبحت في تعداد لاحق في

ضمن سكان الحضر على الرغم من انه لم يحدث تغير يذكر في انماط وحداتهم السكنية وفعالياتهم وفي سلوكهم الاجتماعي . ان هذه العملية كانت وراء زيادة نسبة سكان الريف في داخل مجتمع المدينة .

ثالثا – القرار السياسي (القانوني)

تستخدمه بعض الدول في استحداث مراكز ادارية حضرية من خلال قرار قانوني في استحداث مركز ناحية مثلاً من خلال ضم مجموعة من المستوطنات الريفية المتجاورة لبعضها لخلق مركزاً ادارياً . ولا يحدث على تلك المستوطنات اي تغير باستثناء استحداث بعض المؤسسات الادارية وزيادة فاعلية الخدمات ، ولكن يبقى المجتمع مجتمعاً ريفياً بالمظهر والسلوك على الرغم من احتسابهم في التعدادات اللاحقة سكان حضر . عندها تكون تلك المدن ذات طابعاً ريفياً ، والامثلة لذلك كثيرة في الدول النامية .

استيطان المهاجرون وفق خاصة الاختيار في المدينة .

لما كانت هجرة السكان الى المدن يتم على مراحل على وفق مستويات نتيجة لتأثرها بمتغيرات مكانية وزمانية ، فان تيارات الهجرة كانت في واقعها الاول متواضعة ازدادت بشكل طردي مع زيادة النسبة الحضرية . وتختلف مواضع استقرار المهاجرين في المدينة ولكنها على العموم تتم على وفق مراحل اهمها.

١ – مرحلة الاستقرار الابتدائي :

يتم الاستقرار الاولي او الابتدائي للمهاجرين في المدينة في نطاقين متميزين هما :

أ – المنطقة المركزية للمدينة بعملية غزو سكاني يمارسه السكان المهاجرون على المساكن القديمة المحيطة بالنواة الوظيفية للمدينة المركزية ويكون بواقع اكثر من عالة في الوحدة السكنية وبتأثير هذا التكدس السكاني في

ضمن بؤر محدودة يحدث بعدها تتابع لسكان المدينة الاصليين نظراً لعدم توافقهم مع المستوطنين الجدد . وكلما ارتفعت ظاهرة التتابع ارتفعت وتيرة الغزو والتركز الى ان يكتمل الغزو الى نمط من التركيز للسكان المهاجرين في المدينة المركزية . ومما يساعد على هذا الغزو والتركيز هو توفر مناطق جديدة مستثمرة سكنياً في اطراف المركز الحضري من خلال زيادة الاطار المساحي للمدن .

ب - اطراف المركز الحضري :

كانت مناطق الاطراف للمركز الحضري من المناطق المرغوبة لاستيطان المهاجرون الاوائل لاسباب عدة اهمها :

١ - توافر مساحات واسعة غير مستقلة يمكن الاستيطان فيها وفق مبدأ واضعي اليد وهو في العادة استيطان مجاني .

٢ - تحوي مجتمع متجانس معظمه من المهاجرين ، يمتاز بصفة التجانس الاجتماعي والاقتصادي وفي بعض الحالات صفة التجانس الاثني والديني.

٣ - تمتاز هذه المناطق بخاصية العزلة عن سكان المدينة الاصليين لان المهاجر يشعر بغربته عن مجتمع المدينة ولا يمكن مجاراته في الحياة والتصرف . كما ان نظرة الريبة من سكان المدينة للمهاجرين تدفعهم للتكاتف والتآزر في مواقع تضمن لهم ذلك وهي لا تتوافر الا في اطراف الحيز الحضري .

٤ - تمتاز بمورفولوجية هي اقرب الى مورفولوجية مناطق المنبع منها الى منطقة المقصد .

٣ - مرحلة الحراك الافقي للمهاجرين :

يظهر في المراكز الحضرية تمطين من الحراك ، احدهما حراك عمودي الذي يتسم بطابعه الاقتصادي ،وذلك عندما يتحرك المستوى الاقتصادي للسكان

الحضري داخل الهرم الاقتصادي الحضري بين قمة الهرم وقاعدته ، وان هذا النمط من الحراك لا يدخل في ضمن اهتمامات هذا البحث ، واما النمط الثاني من الحراك فهو حراك افقي ونعني به تغير موقع السكن داخل المدينة ، وبعد هذا النمط من الحراك صفة مميزة للمجتمع الحضري ويكاد ينعدم في المجتمعات الريفية .

ويقوم بهذا النمط من الحراك سكان المدينة الاصليين بانتقالهم من البؤرة القديمة الى اطراف الحيز الحضري . ويطلق عليه في بعض الدراسات بالهجرة الحضرية الداخلية[١٥]. وهذا النمط من الحراك جاء كنتيجة حتمية من عمليات الغزو السكاني وازاحة السكان الاصليين ، وبسمية علماء الاجتماع بالتتابع Successions . وعلى العموم ان هذا النمط من الحراك ليس له تأثير مباشر في عملية الترييف الحضري .

أما الحراك الافقي الثاني فهو في تغيير موقع سكن المهاجرين داخل المدينة وهو على نمطين :

(أ) حراك افقي تلقائي :

يتم بعد استقرار المهاجرين في المدينة لمدة وتفاعلهم مع سكانها – سواء الاصليين منهم ام المهاجرين – وتتكون لدى المهاجر خاصية المفاضلة في مواقع السكن ونظراً لاحساسه المستمر في الغربة عن المجتمع الحضري يبدأ بالبحث عن عناصر القوة في بقاءه في هذا المجتمع الغريب . ويجد مبررات ذلك في ابناء قريته او عشيرته او في المناطق التي يتوافر فيها سكان مهاجرين من قوميته او دينه . عندها يبدأ الحراك الافقي وفق هذه الاعتبارات ويخلق من ورائها نوبات سكانية متركزة على شكل جزرات استيطانية لسكان الريف داخل المركب الحضري للمدينة .

وبعد طوى اقامة في المدينة تتغير المستويات الاقتصادية للمهاجرين ايجابياً ، عندها تبدأ مفاضلة جديدة في الحركة وعادة لا تكون تلقائية وانما

مخطط لها من خلال انتقال السكان الى احياء كانت في مراحل استيطانهم الاولى مقفلة عليهم . ان هذا النمط من الحراك هو بداية انصهار المهاجرين بمجتمع المدينة الاصلي . وقد تؤدي المتغيرات السياسية والاقتصادية دوراً في سرعة عملية الانصهار ، او في النكوص الى القيم العشائرية الاولى التي جبلوا عليها .

(ب) حراك افقي قسري :

يتم هذا النمط من الحراك داخل المدينة المركزية او عند اطرافها . ففي داخل المدينة قد يتعرض الحيز القديم الى عمليات تطوير من خلال فتح الانغلاق بتقطيعه بشبكة من الشوارع الجديدة ، ويطال هذا القطع أجزاءً مهمة من الحيز القديم وبالذات الوحدات السكنية التي تتعرض الى القطع مما يضطر سكانها من المهاجرين او من سواهم الى الحراك لمناطق جديدة او الى مناطق محددة سلفاً لاسكانهم .

اما الحراك القسري عند اطراف المدن فان اي تطوير في التصميم الاساسي للمدن وزيادة الرقعة الحضرية يطال حتماً مناطق سكن المهاجرين التي اقيمت عشوائياً وبدون مسوغ قانوني . اي تلك التي نشأت على مبدأ الخطأ والصواب او على وفق مبدأ واضعي اليد . ويكون الحراك بموجات كبيرة الى مواقع جديدة مخططة . او يرغمون على العودة الى مواطنهم الاصلية او الى مدناً جديدة . وقد اثبتت الوقائع ان ضخامة هذا النمط من الاستيطان لا تقوى المدينة على ترحيله وانما تعمد على بقائه في موقعه وتنفيذ فقرات التصميم الاساسي، او نقلهم الى مواقع جديدة اعدت سلفاً ، وهذا ما حدث فعلاً في بعض المدن العراقية وبالذات في مدينة بغداد التي استقبلت اكبر عدد من المهاجرين من المدن العراقية الاخرى واستقروا في منطقتين رئيسيتين هما منطقة خلف السدة الشرقية (سدة ناظم باشا) في جانب الرصافة ، ومنطقة الشاكرية في جانب الكرخ .

مظاهر الترييف الحضري :

بعد ان ارتفعت النسبة الحضرية في دول العالم – ولاسيما النامية منها . بتاثير عمليات الهجرة والاسر الحضري والقرارات السياسية ، بدأت تتجسد مظاهر الترييف الحضري في المدن ، وهي مظاهر متداخلة ومتزايدة مع زيادة نسبة سكان الريف المستقرين ولعل ابرز تلك المظاهر ما يأتي :

١ – ممارسة نشاطات ريفية داخل المركب الحضري :

ابرزها الزراعة في المناطق القريبة من مستقراتهم داخل المدينة ، فضلاً عن تربية الحيوان والرعي بين الاحياء السكنية . ومما يزيد من هذه الظاهرة حالات الجفاف التي تسود في بعض السنوات ومظاهر التصحر التي تصيب اقليم المدينة . يقابله توفر غطاء اخضر في داخل المدن في الزراعة الحضرية الكثيفة وفي الحدائق العامة والخاصة . ان هذه الممارسة الوظيفية على الرغم مما تسببه من مشكلات اهمها تصحير المناطق الخضراء ، فان ممارسة هذا النشاط كان سبباً في زيادة التلوث داخل المدن وشيوع ظاهرة الحيوانات السائبة داخل الحيز الحضري.

٢ – طبع المجتمع الحضري بسلوكية ريفية :

بعد ان كان سكان الريف يعيشون في ضمن اطر مساحية مفتوحة سواء في مسكنهم ام في نشاطهم الوظيفي ، وعندما يستقرون داخل قوالب جاهزة داخل المركز الحضري فان الاطر المساحية المحدودة لا تسد طموحهم او ما اعتادوا عليه ، ويبدأ عندهم الاحساس بالاختناق مما يضطرهم الى التكتل في ابواب المساكن . كما ان الرجال تتجمع على الارصفة في المحلات السكنية ويمارسون نشاطات ترفيهية ريفية كانوا قد اعتادوا عليها في اوقات فراغهم في مناطق سكنهم السابق في مناطق الاياب .

ومن المؤثرات السلوكية الريفية بروز ظاهرة المغالات في الولائم واحتفالات الاعياد والمناسبات وشيوع الملابس التقليدية الريفية في داخل

المدينة، ولم تقتصر تلك الظاهرات على سكان الريف المستقرين في المدينة ، بل تجاوزذلك الى سكان المدينة الاصليين لاعتبارات اجتماعية واقتصادية .

وتطورات الامور الى نقل السياقات في مورفولوجية الوحدات السكنية التي اقاموها في مناطق استقرارهم داخل المدينة . فسكان الاهوار العراقية عندما انتقلوا الى المدن الرئيسة انشئوا مساكنهم بنفس المورفولوجية ومواد البناء التي جبلوا عليها في مناطقهم الاصلية مثل ما حدث في منطقة الكزيرة في مدينة البصرة ، ومنطقة شطيط (خلف السدة) في مدينة بغداد قبل ازالتها التي استغلت من مهاجرو محافظة ميسان ، وحتى الوقت الحاضر نجد ان الوحدات السكنية التي يقيمها سكان الريف المهاجرين للمدينة هي بذات التركيب والتصميم المعماري الذي اعتادوا عليه في مناطق الاياب الاولى .

ان مدن الصفيح والمناطق المتلوفة تكاد تكون قاسماً مشتركاً لكثير من مناطق سكن المهاجرين في مدن دول العالم النامي . ان هذه النماذج من المناطق السكنية خلقت نويات للسكن المتلوف في المدينة المركزية ، او في اطر كانت تمثل يوماً من الايام مناطق تخوم المدينة . بينما تظهر الان بصورة واضحة عند اطراف المدينة المعاصرة وبالذات في نطاق الاطراف الريفية – الحضرية Rural – urban fringe.

٣ – ضعف خاصية الولاء للمدينة :

ان ضعف خاصية الولاء للمدينة تبرز باجلى صورها في المدن الكبيرة الحجم سواء في المدن المتطورة ام النامية ولكن متغيراتها المسببة مختلفة باختلاف طبيعة المجتمع وانماط النشاطات الاقتصادية الممارسة فيه . ولكن ابرز المتغيرات التي تقف وراء ذلك هي :

(أ) التوسع غير العقلاني للمدن :

تشهد المراكز الحضرية في العالم – ولاسيما في الدول النامية – انفجاراً مساحياً بتاثير زيادة احجام المدن وزيادة المتطلبات الحضرية لتنفيذ مشاريع

حضرية مستجدة على مجتمع المدينة او تطوير القائم منها . وكان دخول السيارة من حيث كونها وسيلة ربط بين اجزاء المدينة او بينها وبين مناطق الظهير ، محفزا لهذا التوسع الذي برز بانماط من النمو التراكمي والمحوري والخطي والقافز او اللؤلؤي والاملائي والسديمي وغيرها[١٦]. ان هذه الانماط من التوسع غيرت من شكل المدينة ومساحتها ، وجعلت اطرافها تتزايد بعداً عن مركزها . ان بعد المسافة وتداخلها مع الريف وضم بعض المستوطنات الريفية بعملية الاسر الحضري ، واستغلال هذه المناطق باسكان المهاجرين زاد من خاصية الانتماء للمدينة المركزية . ومع اللاانتماء زيادة الاطار المساحي للمدينة تصنف خاصية الانتماء بشكل تراكمي .

(ب) شيوع خاصية الانتماء لغير المدينة :

نظراً لتأثير الهجرة الكبيرة على المراكز الحضرية وسيطرتهم على نسبة مرتفعة من سكان المدينة ، وبتاثير خاصية الحراك الافقي للسكان وتركز المهاجرين في مواقع على وفق معايير قبلية او قومية او دينية ، تبدأ اكثر مظاهر الترييف بروزاً في المدينة ، وهو شيوع خاصية الانتماء الى مناطق الاياب الاولى . ومما يساعد على وضوح هذه الخاصية عندما تكون هذه القيم مثاراً للتفاخر والحماية في مجتمع المدينة ، الذي يعده المهاجر مجتمعاً غريباً عنه وما تحركه نحوه الا لدوافع اقتصادية واجتماعية قاهرة . ان طغيان خاصية عدم الانتماء للمدينة تترك اثرها الواضح في المدينة ، إذ تكون ذات موزايك سكاني متنوع في المظهر العام ، ومستقراً في حالة سيطرت النظام المركزي ، لكنه يستفحل عندما تضعف القوة المركزية ، او يصبح هذا الانتماء صفة مميزة لمجتمع المدينة . ان هذا الواقع يجعل المدينة ما هي الا مجموعات من الجزرات السكانية التي تدور حول اطار موضعها المحلي لكنها ترسم خيوط قوية مع اطارها الموقعي . او بعبارة اخرى تتحول المدينة الى دوامات سكانية

تدور مكانياً حول قيمها الريفية وتجعلها مقلقة ومغلفة بشرنقة ملتصقة في مناطق الاياب الاولى .

ومما يزيد الطين بله اذا ما سادت قيمها العشائرية جنباً الى جنب مع القيم الحضرية ، لا بل ترقى عليها في الكثير من مدن دول العالم النامي . والامثلة في المدن الافريقية والاسيوية وامريكا اللاتينية اكبر مثلاً على ذلك . ويزداد الوضع سوءاً عندما تكون مصادر تجهيز المهاجرين ذات تنوع في التركيب الديموغرافي والاثني والقومي . عند ذلك تكون الجزرات السكانية داخل المدينة على الرغم من تعددها وتعدد انتمائها . وعندما تسود هذه الخاصية تترك اثرها في مجتمع المدينة الاصلي وذلك عندما يصبحوا اقلية ، فيحاولون الاحتماء خلف هذه المفاهيم من خلال النفاذ الى انتمائهم العشائرية او القومية لاكتساب جزء من القوة امام هذا الموزايك الغريب وهذه الحالة ستكون المرحلة النهائية لظاهرة الترييف الحضري.

(ج) ارتفاع حالات الجريمة في المدينة :

ان الجريمة بانواعها تعد اكثر تطوراً وعدداً في المدينة مما هو عليه في المناطق الريفية وذلك بحكم التكدس السكاني المفرط وارتفاع وتيرة الاحتكاك بين السكان كما ان التعددية في الوظائف والدخول يجعل الهرم الاقتصادي الحضري بمستويات متعددة بين قاعدة الهرم وقمته ، مما يولد صراعاً طبقياً قد يفضي الى حدوث جرائم متعددة ، فضلاً عن ذلك فان ارتفاع مديات الحركة داخل الحيز الحضري يجعل منغصات الحياة الحضرية تترك اثرها الواضح في تكرارات الجريمة . وكما ان ضياع الروابط الاجتماعية وخاصية الانتماء في المدينة يجعل صلة الرحم او الانتماء ضعيفة ان لم تكن مفقودة في المدن الكبرى وبالذات في اطراف الحيز الحضري .

ان خاصية الانتماء في المدينة ذات دوافع عديدة ياتي في طليعة مسببات ضحالتها في المدينة ، الهجرة ، فان ارتفاع وتيرة الهجرة في المكان تؤدي الى

نقص الاهتمام القديم بالارض[١٧]. هذا من جانب ومن جانب اخر ان اختلاف العادات والتقاليد في المجتمع الجديد وما تفرضه المدينة على المهاجر من قوانين وانظمة تولد في نفسه السخط والنفور وتؤدي الى ارتكاب الجريمة[١٨].

ويرى بعض الباحثين اثر الهجرة في الوطن الواحد على سلوك الافراد فابناء الريف الذين يهجرونه الى المدينة يتحررون تدريجياً من عاداتهم الريفية بسبب عجزهم عن المحافظة عليها لعدم ملاءمتها لحياة المدينة وعاداتها وتقاليدها ويصبحون في حالة فوضى نفسية تولدها تضارب العادات الريفية والمدينة الذي يخضع الفرد الى ضغط اجتماعي قد لا يتحمله وينفر منه او يقاومه ويسلك سلوكاً شاذاً يظهر بالجريمة[١٩].

٤ – غزو الرعاة للمدن واستقرارهم في اطرافها :

يعد الرعاة من اقل سكان الريف رغبة في الهجرة والاستقرار في مستقرات ثابته ، لان حياتهم مبنية اصلا على خاصية الحركة وراء الكلأ والماء وان المدن لا تتوافق مع قيمهم الاجتماعية ، ولكن بتأثير حالات الجفاف والتصحر في الكثير من المناخات الحدية، وبتاثير تكرار تلك الحالات دفعت الرعاة الى اللجوء الى المدن ، ولاسيما في نطاق الاطراف الريفية – الحضرية ، ان استقرار الرعاة في هذا النطاق يعود للاسباب الآتية :

(أ) شحة المراعي في مناطقهم الاصلية ، والاستفادة من الزراعات الحضرية والحدائق العامة والخاصة ، ومناطق تجميع النفايات عند هذا النطاق .

(ب) توافر سكن جاهز ومجاني ممثلاً بالهياكل السكنية يغري طموحهم في السكن في وحدات سكنية ثابتة .

(ج) توافر الفضاءات الملائمة لتجوالهم مع قطعانهم .

(د) توافر مصادر مياه تمتاز بالثبات والديمومة .

(هـ) تاثير بريق المدينة بكل ما يحتويه من خدمات تجارية وصحية .

(و) الاستقرار عند مركز استطابي يوفر لهم المرونة في تصريف انتاجهم من لحوم ومشتقات الالبان.

(ز) عدم وجود رادع اداري يمنعهم من الاستقرار عند تخوم المدينة .

ان هذه الحركة السكانية ، فضلاً عن ما تتركه من اثر سلبي على المدن من خلال ارتفاع حالات الصراع بين الرعاة وسكان المدينة ، وشيوع ظاهرة تجوال الحيوانات داخل مفاصل المدينة ، فانها رفعت من مستوى التلوث البيئي ، وزادت من ظاهرة الترييف الحضري سواء بالسلوك ام بالممارسة . ومن جانب اخر فان هذا الاستقرار شجع الاخرين من اقرانهم واقربائهم على الهجرة باتجاه المدن .

٥ – زيادة وتيرة التدهور في المدينة :

تعنى بالتدهور ، حالة التهرؤ الحاصلة في المنشأت الحضرية وبشكل خاص في استعمالات الارض السكنية[٢٠]. ويحدث التدهور بتاثيرات طبيعية ناتجة عن الخصائص الموضعية للمدينة ، والبعض الاخر يرتبط بتاثير عوامل بشرية [٢١]. ويحدث التهرؤ في المدن كناتج عرضي لعملية الترييف الحضري وتدل الوقائع المشخصة ان السكان المهاجرين للمدن لكبرى تتحدد مناطق سكناهم في ثلاثة نطاقات رئيسة هي :

(أ) بؤرة المدينة القديمة . بعدّها قريبة من مركز النشاط الاقتصادي للحيز الحضري ، وهي منطقة الاكيومين فيه . ويستوطنها المهاجر بدوافع القرب من مواقع العمل ، وتقليل تكاليف النقل . وتشترك اكثر من عائلة مهاجرة في استغلال الوحدة السكنية . وعادة تكون تلك الوحدات مناطق تراثية ترسم مورفولوجيتها وبنيتها الداخلية خصائص العمارة التقليدية التي تتفاخر بها المدن القديمة عن نظائرها من المدن المعاصرة.

ونظراً لضياع مسؤولية الاهتمام بالوحدات الوظيفية لعدم ادراك الساكنين لاهميتها التراثية ولتعددية العوامل فان مستأجريها لايقومون بعملية

الترميم او اعادة التأهيل . كما ان مالكيها يتركونها على حالها ما دامت قابلة للتأجير . كما ان ساكنيها لا تربطهم بها روابط ما دامت قائمة ، ومن السهولة حراكهم الى مواضع اخرى وتركها للاندراس .

(ب) مناطق تركز سكان الريف بعد حراكهم الافقي الى اطراف الحيز الحضري اذ انه نتيجة لتواضع دخول المهاجرين في المدن فان الوحدات السكنية التي يقيموها في مناطق تركزهم هي اما وحدات مبنية وفق نظام المحاكات لوحداتهم السكنية في مواطنهم الاصلية وعادة تكون وحدات سريعة التدهور وفي نسقية تظهر بوضوح من خط سماء منطقة سكناهم، كما ان مواد البناء المستخدمة تكون بمواصفات سرعان ما تتدهور مقارنة بالوحدات السكنية الحضرية .

(ج) وحدات سكنية متدهورة مبنية على مبدأ واضعي اليد تنشأ عند اطراف الحيز الحضري على شكل وحدات رديئة النوعية في اراضي تعود ملكيتها لاشخاص او للدولة . وعادة تكون في بداية نشأتها خارج حدود التصميم الاساس للمدينة ، وهي عموماً وحدات ذات مورفولوجية ريفية ، وخطتها عشوائية غير واضحة المعالم . ويستخدم في معظمها مواد اولية سريعة التلف كالصفيح والطين والقصب ومشتقاته ، وتكون بمجموعها مساكن متلوفة لافتقارها الى الخدمات ومتطلبات السلامة .

٦ - خلق موازييك سكاني :

ان سكان المدينة يمتازون بالتجانس الحذر في الكثير من القيم الحضرية وما الهرم السكاني فيها الا هرم اقتصادي . وعلى الرغم من اتساع المسافة بين قمة الهرم وقاعدته في مجتمع المدينة ، الا ان الحراك العمودي للسكان يجعلهم يتأرجحون بين القمة والقاعدة ولكن بدوافع اقتصادية واجتماعية . كما ان من خصائص المدينة انها بؤرة للتركز الوظيفي . ونظراً لتباين الاهمية الاجتماعية والاقتصادية لتلك الوظائف فانها تعطي تمايزاً اخر يطلق عليه في بعض

الدراسات السسيواقتصادي ، من ذلك يظهر المجتمع الحضري ظاهرياً بانه مجتمع شبه متجانس ولكنه في حقيقته متنوع اقتصادياً واجتماعياً ووظيفياً . وبتأثير الهجرة من الريف الى المدينة ينقل سكان الريف معهم قيمهم الاجتماعية وانتمائهم القومية ومذاهبهم الدينية .وهذه التباينات تجعل مجتمع المدينة اكثر تنوعاً مع زيادة تيار الهجرة . وكلما اختلفت وتعددت القيم الاجتماعية والاثنية لمناطق المنبع . وعلى وفق هذه الاعتبارات تخلق مناطق تركز المهاجرين داخل الحيز الحضري نوى وجزرات سكانية متنوعة . وهذه حقيقة تعيشها جميع المدن الاستقطابية ، ولكن عندما تتأصل هذه الظاهرة وتعطي انعكاسها على السلوك والاكسسوارات واللغة والممارسة الدينية فانها تخلق موزاييك سكاني فريد ، في حين لايظهر هذا الموزاييك في المدن التي لا تتعرض الى تيارات هجرة كبيرة ، والمدن التي لا يختلف سكان الريف عن سكان المدن في القومية والدين واللغة . وعلى هذا الاساس فان الموزايك السكاني مرهون اصلاً في ظاهرة الترييف الحضري كرد فعل لاثبات الوجود والتميز داخل مجتمع المدينة المعقد مقارنة بمجتمع الريف .

المصادر والهوامش

١. محمد الجديدي ، مسائل في الجغرافية الحضرية ، تونس ١٩٩٦، ص ص٤٥-٤٦.

٢. طه حمادي الحديثي ، جغرافية السكان ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ٢٠٠٠، ص ص ٦٨٧-٧٠٠. و د. محمد الجديدي ، مصدر سابق ، ص ٥٤.

٣. نفس المصدر ، ص ٥٥.

٤. J-GOTTMANW, "Megalopolis, the urbonized north eastern seabeoard of the united states , the M.I.T.Press, London , 1969. "

٥. محمد الجديدي ، مصدر سابق ، ص ٧١.

٦. صلاح حميد الجنابي ، جغرافية الحضر ، اسس وتطبيقات ، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، ١٩٨٧ ، ص ص ١٠-٢٨

٧. وزارة التخطيط ، هيئة التخطيط العمراني ، معايير تحديد المناطق الحضرية والريفة في العراق ، ١٩٨٤ ، ص ٩٤.

٨. M.Jefferson , "The Distribation of worlds city fotk . Geographical Review. Volxx1, 1931. P.53."

٩. ذنون يونس عبد الله العبيدي ، نمو سكان مدينة الموصل ، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل ، كلية التربية ، قسم الجغرافية ، ١٩٩٨ ، ص١٧٥ .

١٠. عبد الرزاق عباس حسين ، جغرافية المدن ، مطبعة اسعد ، ١٩٧٧ ، ص٣٠ .

١١. علي لطفي ، التوقعات المستقبلية للزراعة المصرية ودورها في ترقية الحاجات الغذائية الى عام ٢٠٠٠، الكويت ، ١٩٧٨.

١٢. الجديدي ، مصدر سابق ، ص ٩١.

١٣. حسن الخياط ، المدينة العربية الخليجية ، مركز البحوث والدراسات الانسانية في جامعة قطر ، الدوحة ، ١٩٨٨ ، ص ٤٨٧.

١٤. جمال حمدان ، جغرافية المدن. الطبعة الثانية ، عالم الكتب ، دار وهدان للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٧٧ .

١٥. عبد العزيز الى الشيخ ، الهجرة الحضرية الداخلية للمملكة العربية السعودية ، دراسة تحليلية لخمسة مجموعات من الاسر في مدينة الرياض، ترجمة محمد عبد الرحمن الشرنوبي ، نشرة الجمعية الجغرافية الكويتية ، العدد ٣٨، ١٩٨١.

١٦. صلاح حميد الجنابي ، الاتساع المساحي للمدن : الاثار القائمة والمتوقعة دراسة تطبيقية عن بعض المدن العراقية ، المؤتمر العام الثامن لمنظمة المدن العربية ، الجزء الثاني ، الرياض ، ١٩٨٩ ، ص.ص.٤٩٩-٥٠٣.

١٧. جامعة الدول العربية ، الادارة العامة للشؤون الاجتماعية والثقافية ، ادارة التنمية الاجتماعية ، وزراء الشؤون الاجتماعية العرب ، مسودة التقرير الاجتماعي العربي ، ص٥٣.

١٨. طوفان سطام حسن محمد البياتي ، الانماط الزمانية والمكانية للجريمة في محافظة صلاح الدين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية، جامعة تكريت ، قسم الجغرافية ، ٢٠٠١، ص ٢٠.

١٩. شاكر العاني المحامي ، الجريمة ، جمعية المؤلفين والكتاب العرب، مطبعة الرشاد ، بغداد ، ١٩٦٢، ص ٩٠.